تأليف : محمد سعيد القدال
عرض وتعليق : أحمد عثمان محمد ابراهيم

طبعته دار التأليف والترجمة والنشر، بجامعة الخرطوم . الطبعة الاولى سنة ١٩٧٣م يقع هذا الكتاب فى مائة وتسعة وخمسين صفحة ، على ورق ابيض مصقول بغلاف خفيف متين .

يتضمن الكتاب مقدمة وخمسة فصول قسمت أقساما صغيرة بعناوين جانبية ويختلف الفصل بين قسمين وستة اقسام .والحق بالكتاب ملحقاته (أ ، ب) الاول خريطة للمنطقة التى شملتها الدراسة ،والثانى تخطيط لحصن القلابات .

ولعل أول شيء جدير بالاشارة انعنوان الكتاب ليس شاملا لمحتواه وانما يمثل جانبا واحدا من الدراسة التى عنى بها الكتاب . وهو جانب العلاقات الحبشية السودانية فى المهدية ، بل انه لا يمثل هذا الجانب كاملا لان العلاقات الحبشية السودانية لايمكن ان تدرس من وجهة نظر وثائق المهدية وحدها ، فلابد من النظر فى الوثائق الحبشية كذلك .على ان المؤلف قد اعتذر فى آخر الكتاب بانه حاول ولم يجد وثائق ينتفع بها فى اثيوبيا . وعليه فان دراسته من وثائق المهدية حسب رأيى انما توضح سياسة دولة المهدية نحو الحبشة وحسب ، ولا تعالج العلاقات السودانية الحبشية ،ولابد ان اثبت ان المؤلف لم يزعم انه يدرس العلاقات السودانية الحبشية فى المهدية ، الا ان عنوان الكتاب هو الذى يوحى بذلك وقد حوى الكتاب غيرذلك جوانب أخرى مثل انتشار الثورة فى

الحدود الشرقية ، وادارة المهدية فى ذلك الاقليم . وسياسة المهدية وكل ذلك يخرج عن نطاق العنوان .

والكتاب فى جملته بحث اصيل ،اعتمد المؤلف فيه على مصادر اولية . سواء اكانت فى صورة خطابات متبادلة أوكتب أو نحو ذلك ، والبحث جاء زبدة طيبة لهذه المصادر طرق البحث جوانب جديدة فى تاريخ السودان يأتى تفصيلها فى الآتى : —

استهل الكتاب بمقدمة (ص ١٣ — ٢١) شملت جغرافية المنطقة الطبيعية البشرية فى ايجاز غير مخل بالغرض ، ثم خص بالحديث اهم ثلاثة مدن فى المنطقة ، مبينا على وجه الخصوص ، اثرها فى اقتصاد المنطقة ، وهى القضارف والقلابات بالسودان ، ثم غندار بالحبشه . ثم تعرض الى أهمية المنطقة الاستراتيجية والعسكرية منذ العهد التركى المصرى .

ومن اهم ما ورد فى الفصل الاول تحقيق جيد لاختلاف اراء المؤرخين والروايات فى سقوط القضارف وانتشار دعوة المهدى بها على يد الحسين عبدالواحد نور الدائم ، ثم تعيين عبد الله احمد أبوسن عاملا عليها وعلى جهات بحر اتبره فسقوط القلابات والقضارف الذى كان من نتائجه عمالة القضارف — القلابات التى عين المهدى عليها محمد ولد ارباب عاملا .

وعالج المؤلف مسألة الخلط الناتجة من استعمال لفظ عامل وعماله ، بغير تحديد فالعامل تارة على وحدة جغرافية وأخرى على قبيلة . والعمالات مبهمة الحدود الامر الذى ادى الى اضطراب الادارة فى بعض الاحيان . وقرر المؤلف فى سياق حديثه عن سياسة المهدية نحو الحبشة (ص ٣٦) انها لم تخرج عن سياسة المهدى الخارجية التى تعتبر كل دولة لاتؤمن بالمهدية دار حرب ، غير ان المؤلف لم يثبت على هذا الرأى ، ففى الفصل الثالث (ص ٩٦) وهو يحلل طبيعة الحرب مع الحبشة قال « ... فان طبيعة حروبات المهدية فى تلك المنطقة لم تكن حروبات توسعية ، بقدر ما هى من اجل الغنائم أو لتحريك الجيش وشغله ... » فالفرق بين السياسة المرسومة والسياسة الواقعية يحتاج الى مزيد من التوضيح .

وتعرض الفصل الثانى باسهاب ووضوح الى عراك الخليفة مع قبيلة الضباينة الذى انتهى باعتقال شيخ القبيلة محمود ولد عيسى زايد ، حتى تم العفو عنهم بعد ان طلب العفو عوض الكريم عيسى زايد اخو المعتقل ، وطأطأت القبيلة رأسها ، كما قضى الخليفة على عناصر المعارضة الأخرى بالقبض على عبد الله الطريفى عامل القضارف واخيه محمد ، بسبب سندهما لولد زايد .

وعسى ان يعجب القارىء تصدى المؤلف فى نفس الفصل الى نقاش فكرة جواز حرب الحبشة وعدمه على ضوء الحديث الشريف « اتركوا الاحباش مانركوكم » وقد اوفى هذه النقطة حقها (ص ٤٨) ثم فصل فى المساجلات العربية بين الانصار والاحباش حتى انتهت بقتل محمد ارباب فى يناير سنة ١٨٧٧ م ، والاستيلاء على القلابات ، مما جعل الخليفة يعجل بارسال يونس الدكيم من الجزيرة الى الشرق ويستدعى ابا عنجه من الغرب ليلحق بها ــ مخافة التوغل الحبشى فى اراضى المهدية . وتتبع المؤلف الوقائع الحربية بين الحبشة والانصار فى تفصيل دقيق فيه اناة وصبر رغم صغر الاحداث احيانا ، ويطرد هذا الصبر فى وصف المعارك فى الفصل الثالث أيضا ، وهو خاص بعهد ابى عنجه فى الحدود الشرقية .

والفصل الرابع يتحدث عن عمالة القضارف القلابات وهى تتأرجح بين الزاكى طمل واحمد على ، بن عم الخليفة ، ويسرد تفاصيل الصراع بين هذين الاميرين حتى ينتهى بالقضاء على الزاكى فى السجن حتى مات محروما من الماء والطعام ، فى الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٩٣ .

ولكن المؤلف سرد هذه القصة الهامة الشائقة (ص ١٣٢ ــ ١٣٧) بتفاصيلها الدقيقة ولم يشر الى مصدر واحد لكل تلك المعلومات ، سيما وقد اورد فى ثنايا الحديث كثيرا من المقتطفات المجهولة الاصل .

ويستوقف القارىء فى ص ١١٨ نقاش المؤلف لظاهرة فرار أولاد العرب من الجيش فى ثغر القلابات واثرها فى افساد الجهادية واغرائهم بعدم الطاعة وظاهرة النزوف عن الجهاد وهذه الظاهرة بدأت فى عهد الخليفة ولها اسبابها العقائدية والاقتصادية وقد كانت القبائل والافراد تستنفر الى الجهاد فى عهد المهدى .

وبنهاية عهد أحمد فضيل فى هذه المنطقة (١٨٩٤ ــ ١٨٩٩) اسدل الستار

على دولة المهدية كلها ، وليس فى الحدودالشرقية وحدها • وعهد احمد فضيل الذى يتحدث عنه الفصل الخامس كانأضعف عهود المهدية بالشرق ، فحربه مع الطليان كانت هزائم ومع الاحباش مهادنةومفاوضات صلح ، وصلته مع الخليفة كانت حبا ومراوغة ، وانتهى ذلك بسقوطالمنطقة فى يد الطليان أولا ثم الجيش الغازى اخيرا •

وبما ان الكتاب بحث جاد كانينبغى على المؤلف ان يلتزم منهاج البحث بكل جوانبه ففى الحواشى كثير منالتقصير اهمه فى الآتى : ـ

أولا على الرغم من قائمة رموزالمراجع التى وضعت فى مطلع البحث كان الاحرى ان يذكر المرجع ، أول مايذكر ،كاملا بالطريقة المصطلح عليها ، فيوضع بعد ذلك رمزه بين قوسين يشار به للمرجع كلما ورد ذكره بعد ذلك • لكن المؤلف درج على الاشارة الى المراجع وحدها منبداية البحث حتى نهايته والمراجع التى ليس لها رموز ذكرت ناقصة كما فى(ص ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١٠٦) •• الخ • ولم يأبه المؤلف بوضعالعلامات والخطوطالتى تميز بين المقالة والكتاب مثلا ، ولا بتاريخ ومكان النشر (ص ١٦ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١٠٦) •

ومن الاخطاء الفنية أيضا ارقامالحواشى ، فحاشية الصفحة فى الكتاب كله تبدأ بالرقم ١ ثم ٢ الخ الا ان ذلكاختلف كثيرا فى بعض الصفحات ، ولعل ذلك يرجع الى اغفالها فى المراجعة(ص ٩٥ ـ ١٠١) •

وهنالك بعض المزالق اللغوية والاملائية والعبارات المعممة التى كان تلافيها ممكنا ، فمن امثلة ذلك قوله (ص ١٥) :« ••• لركوب شيخ القبيلة نحوا من اربع الاف (وص ٤٥) •• برز عوض الكريمعيسى زايد اخ محمود (وص ٢٩) ان يوحنا دعى كل رؤساء •• » • ومنالتعميم قوله (ص ٢٣) : « •• ويذهب كثير من المؤرخين » دون ان يشير الىواحد من هؤلاء المؤرخين • وقوله (ص ١٥) « ••• ولقيت هذه القبيلةحظا كبيرا فى العهد التركى » لعله يعنى حظوة عند الحكام • وقوله (ص ١٧)« •• وتتحدث بعض المراجع التاريخية » دون اشارة الى واحد منها •

ومن العبارات الصحفية التى لاتليق بالبحث الجاد قوله « ص ٤٤ » •••

وقد ابدى الخليفة ارتياحا لاعتقال ولدزايد .. » ومن الكلمات التى فى استعمالها شىء من التراخى قوله (ص٣٣)« الجيش الاثيوبى » وهو يريد الحبشى والفرق التاريخى واضح بين الكلمتين .

ومن جوانب التقصير الكبيرة ان المؤلف ظل يعرف بعض الشخصيات فى حواشيه دون اشارة الى الجهة التى يستقى منها تلك المعلومات : انظر ص ٢٤ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٧٢ ، الخ . ولم يقف ذلك على الحواشى وانما تعداها الى صلب البحث كما اشرنا اعلاه الى قصة الصراع بين الزاكى طمل واحمد على .

وقد اكثر المؤلف من المقتطفات حتى طغت فى آخر الكتاب على اسلوبه أو أوشكت فيا حبذا لو صهرها واحالها الى لغته ، ولم يلجأ الى الاقتطاف من الوثائق الا عند الضرورة ورغم ذلك فان هذا البحث اسهام كبير لبعث التراث القومى واثراء للدراسات السودانية .